الحياة المكتوبة مرتيْن

طارق إمام: كاتب مصريّ. له رواية وأربع مجموعات قصصيّة، منها: **طيور جديدة لم يفسدها الهواء (١٩٩٥)، شارعٌ لكائنٍ آخر (١٩٩٧)، حكايةُ رجلٍ عجوزٍ كلّما حلم بمدينة جديدة مات فيها (٢٠١٠).**

تنبّأتْ لي عرّافةٌ في طفولتي بأنّ خطّي الجميل سيكون لعنتي الأبديّة. كنتُ في الثامنة، أجلس وحدي على شاطئ البحر. كتبتُ على الرمل اسمي بالخطّ الكوفيّ والفارسيّ والديوانيّ. كنتُ أنظر في الرمل حين فوجئتُ بقدمين معروقتيْن قاسيتيْن تدوسان اسميَ، تمحوانه، بالتزامن مع موجةٍ عنيفةٍ جاءت لتبلّ الرملَ وتُغرق القدمين. كأنّ الكون تآمر على محو اسمي.

رفعتُ عينيّ، ورأيتُ المرأة الأكثر شيخوخةً في هذا العالم. زرقاء، ترتدي ملابسَ مهلهلة. شعرُها أبيض ومحلولٌ ومُلقًى إلى الأمام حتى أخفى وجهها تمامًا. قالت لي: «أنت تريد أن تفنى، أن تموت.» لم أُجبها. نَزَلَتْ من عليائها وجلستْ إلى جواري. نكَشَت الرملَ كالمجذوبة، فعاد اسمي إلى الظهور من الخواء، مكتوبًا كما كان بالخطوط الثلاثة: كأنّ قدميها لم تمحواه، كأنّ البحر لم يحوّله إلى عدم.

سألتْ: من أنت؟ قلتُ إنني لا أملك سوى ما تراه. كنتُ بلا أسرة. وُجدتُ في خانٍ مع عجوز قال إنّ أهلي ائتمنوه عليّ قبل رحيلهم، ولم يزد حرفًا على هذه العبارة الغامضة التي صارت من حينها تاريخي الوحيد. كان خطّاطًا، يعيد نسخ المخطوطات التي تصله، أكانت أعمالاً تخلّد كتّابَ العصر، أمْ خطاباتٍ غراميّة لفتياتٍ سيّئات الخطّ.

بعد عامين من لقائي العرّافةَ، صرتُ خطّاطًا رسميّاً في الخان. أوكل إليّ الرجلُ في البداية أمرَ الخطابات الغراميّة والأوراق التي لا أهميّة لها للدولة أو التاريخ. ومع أنه كان بذلك يحْرمني شهرةً مبكّرة، فإنّه كان أيضًا يجنّبني الحطر. ولكنه ما لبث أن ترك لي كلّ شيء حين اشتدّ عليه مرضٌ غامض، فصارت يدُه مرتعشة على الدوام. كنت أعرف أنّ هذا قدرُ أيّ خطّاط: تموت يده أولاً، علامةً على موته الوشيك. هكذا بدأتْ شهرتي تذيع بوصفي أصغر الخطّاطين في البلاد وأمهرَهم.

بعد عامين آخرين توفّي صاحبُ الخان، ومعه سرُّ وجودي كلّه. في لحظات احتضاره طلب إليّ أن أقترب منه. أمسك يدي، وقرّب فمه إلى أذني حتى اخترقتْها أنفاسُه الثلجيّة الأخيرة. قال: «أنت تريد أن تعرف من أنت.» قلتُ: «لا.» كنتُ أعرف أنه في سنوات عمري الثماني عشرة لن يكون مجديًا أن أعرف أيّ أبٍ لي أو أمّ، وتأكّدتُ أنّ السنوات التي يكوّن فيها المرءُ مشاعرَه الأساسيّة تجاه من حوله قد ولّت. وكان غموضُ قصّة حياتي قد منحني فرصةً الكذب عن نشأتي حين أتحدّث إلى الجميلات من دون أن أُلام. ولم أكن على استعدادٍ لتحمّل صدمة أن يكون أبواي فقيرين، أو أن أكتشف أنني ابنُ زنا.

لم يلحّ الرجلُ في طلبه، كأنّه كان ينتظر رفضي ليخلّص ضميرَه من عبئي. أوصاني بالخان من بعده، وقال: «لقد تركتُ خلفي مخطوطاتٍ عديدة لم يكتملْ نسخُها، غير أنّ أحطرها على الإطلاق هو هذا.» مدّ يده وأخرجه من تحت وسادته. منحني إيّاه، مع مخطوطٍ آخر يحمل ما نسخه منه، ثم أكمل: «عليك أن تكون حذرًا، فلن ترى صاحبَه أبدًا لأنه الموت نفسه. سيكتفي بإرسال فتاةٍ جميلةٍ بلا اسم نهايةَ هذا الشهر لتستلم الأصلَ والمخطوطَ

المنسوخ.» وأكمل بصوت مرتعش: «هذا المخطوط فيه حياتُك وموتُك. فإنْ لم تنجزْه في موعده المطلوب فسيكون مصيرك هو الموت.» بعدها أغمضَ عينيه إلى الأبد.

❖ ❖ ❖

هكذا وجدتُ نفسي مطالبًا باستكمال المخطوط السرّيّ الذي بدأه الرجلُ ولم يكمله. بدأتُ بتصفّح المخطوط الأصليّ، ولكنني فوجئتُ بأنّ صفحاته بيضاءُ، خاليةٌ من أيّ حرف، وإلى جانبها المخطوطُ الذي ينسخه الرجل. انتابني شعورٌ بالرعب، إذ لم أعرف ما كان الرجل ينقله من تلك الصفحات البيضاء طوال العامين الأخيرين. كان الرجل يكتب قصة طفل يتيم آل إليه أمرُ القيام به وصار خطّاطًا. كان الرجل يخطّ قصة حياتي، ولكنّ كتابته انتهت عند اللحظة التي أحياها الآن وأنا في الثامنة عشرة. ومع ذلك فإنه لم يقل من هما أبواي ولا كيف ولدتُ، وإنْ كتب أسرارًا عميقةً تخصّني ظننتُ أنّ أحدًا عيري لا يعرفها، ومنها لقائي الغامض بالعرّافة. ما الذي كان الرجل سيكمله؟ أيحوي المخطوط قصةَ حياتي منذ ولادتي حتى لحظة موتي؟! أصابتني الصاعقة في مقتل؛ فقد كان عليَّ أن أنسخ حياتي بالذات، إلى جانب أنّ حياتي هذه نفسها كانت في المخطوط الأصليّ عبارةً عن صفحاتٍ خالية.

رحتُ عبثًا أقلّب الأوراق الفارغة. لم يقل لي الرجل كيف كان يعيد نسخَها، وليس ثمّة من أسأله، إذ لا أعرف لهذا المخطوط صاحبًا. بقيتْ أيامٌ ثلاثة على تسليم المخطوط كاملاً، والموتُ مصيري الوحيد. فجأةً، برزتْ في ذهني فكرةٌ غريبة: فإذا كانت الحكاية التي في المخطوط هي حكايتي، فلأتخيّلْ بنفسي حياتي المقبلة لأنني في كلّ الأحوال ميتٌ. شعرتُ بأنني مقبلٌ على لعبةٍ مثيرة، وكنتُ كلّما تذكّرتُ كلمات صاحب الخان الخاصة بحياتي المعلّقة على هذه المهمة أرتعدُ وأشعرُ أنّ الموت قريبٌ مني.

بدأتُ الكتابة. كنتُ في البداية أكتب عباراتٍ بسيطة كتلك التي قد تعبّر عن حياة أيّ شخصٍ في الدنيا. لكنّ اللعبة ما لبثتْ أن جذبتني، فانهمكتُ فيها بكلّ جوارحي. مرّت الأيامُ الثلاثة ولم أكن قد كتبتُ سوى صفحات قليلة، فانكمشتُ من الرعب. لكنْ، لحسن الحظّ، مرّت الليلة التي انتظرتُ فيها الإطاحة برقبتي من دون أن يأتي أحد. بعدها زاد إحساسي بالأمان، فرحتُ أكتب بانسيابيّةٍ أكبر، وبخطٍّ جميلٍ متقنٍ لم أكتب مثله في حياتي. كنتُ أؤلّف لنفسي حياةً لم أعشها. سافرتُ بلادًا وعرفتُ أعداء وأصدقاء. ومع كلّ مرحلة في حياتي كنتُ أنوّع الخطوط، حتى صارت تشبه تموّجاتِ حياتي التي رحت أؤلّفها كأنّني أكتب عن شخصٍ آخر عاش ومات بالفعل قبل أن أحيء أنا إلى الوجود.

لا تريد الحكاية أن تنتهي، ولا أحد يجيء. مرّت سنوات وسنوات، وأنا أكبر في الواقع مثلما أكبر في الحكاية. حتى جاء يومٌ فوجئتُ فيه بيدي ترتعش كلّما كتبتُ سطرًا، وبدأتْ تعصاني حين بلغتُ المراحلَ النهائيّة من كتابة حياتي. هنا عرفتُ أنني بلغتُ الشيخوخة وأوشكتُ على الموت.

❖ ❖ ❖

لا أعرف كم مضى من العمر. كلّ ما كنتُ أعرفه هو أنني أتممتُ أخيرًا كتابة حياتي، التي انتهت بتسليمي المخطوطَ إلى صاحبته من دون أن أنتظر ثوابًا أو عقابًا، لأنني (كما كتبتُ في المخطوط) متُّ بعد تسليمه مباشرةً في سريري. هكذا أنهيتُ حكايتي في المخطوط. لحظةَ انتهائي، فوجئتُ بطرْقٍ على الباب. فتحتُه بلهفة. وجدتُ امرأةً مغطّاة الرأس تقف قبالتي، مادّةً يديها. عرفتُ من إشارتها أنها جاءت في طلب المخطوطين، الأصليّ، وذلك الذي أكملتُ كتابته. قلتُ لنفسي: هذه إذن هي الفتاة التي حدّثني عنها صاحبُ الخان قديمًا. لكنْ، أما زالت فتاة؟ وما الذي فعله بها الزمن؟ ولأنني لم أعد أملك ما أخسره فقد كشفتُ وجهها بكلّ ما أملك من قسوة، لكنها لم تفاجأ بما فعلتُ ولم تحاولْ منعي .في هذه اللحظة رأيتُ أمامي وجهَ العرّافة التي زارتني في طفولتني، مبتسمةً، محتفظةً بشيخوختها وبلمعةِ العينيين اللتين تقرأان حياةَ الناس القادمة.

اتّسعتْ ضحكتُها ما إنْ صار وجهُها مكشوفًا، حتى هُيّئ إليّ أنّ المدينة بأسرها قد سمعتها. بدأتْ تقلّب المخطوط بين يديها، وهي تطالع خطّي الجميل. طلبتْ مني المخطوط الأصليّ، فقدّمتُه إليها. فتحته وقالت: «اقرأ.» قلتُ لها إنّ صفحاته بيضاء. أطلقتْ ضحكة ماجنة أعنف من سابقتها، وفتحتْه بنفسها. فوجئتُ بكلّ صفحاته مكتوبة. أخذتُ أقرأ صفحة بعد الأخرى، وفوجئتُ بأنّني كتبتُ بالضبط ، وبالصياعة عينها، قصتي التي في المخطوط الأصليّ.